على هامش الذكرى ١١٠ لميلاد لينين

خواطر شتى حول لينين كمفكر سياسي

- ١ -

– يحتفل البشرية التقدمية في هذا العام بالذكرى العاشرة بعد المئة لميلاد فلاديمير ايليتش لينين ، الرجل الذي اضاء طريق نضال الطبقة العاملة العالمية وحركة التحرر الوطني المناهضة للامبريالية ذلك بتطويره للماركسية وبتأسيسه لاول حزب من الطراز الجديد " الحزب البلشفي " وبقيادته لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى الثورة التي فتحت بانتصارها عصرا جديدا في حياة البشرية جمعاء .

وفي البلدان العربية يحتفل المناضلون ضد الامبريالية والرجعية من اجل التحرر والتقدم والاشتراكية بلينين في وقت تستقبل فيه الجماهير الثورية العربية افكار الماركسية اللينينية مثلما تستقبل الارض العطشى الماء .. في وقت لم يعد فيه حل القضايا التي تطرحها الحياة بدون التفكير الثوري العلمي أي بدون النظرية الماركسية اللينينية .

لقد عالج لينين ، مطورا تعاليم ماركس وانجلز مغنيا اياها بتحليله للمعطيات الجديدة المستمدة من الواقع الجديد للحركة العمالية العالمية ، عالج قضية الحزب بشمول وعمق ووضع البطر مؤسسا نظرية الحزب ذي الطراز الجديد . وقد انجز لينين هذا العمل في صراع مبدئي عنيف ضد مختلف التيارات الانتهازية والتحريفية فكان مناضلا صلبا لا يلين على مختلف الجبهات والاصعدة .....اذ لم يترك مجالا الا وعالجه بزاد عقله واستفادته من تعاليم رفيقيه ماركس وانجلس .

- ٢ -

كان لينين مفكرا سياسيا من اعلى طراز . وهو بصفته هذه ورث التقاليد الكبرى للفكر السياسي الرشيد . بيد انه مضطرا لكونه في مدرسة ماركس وانجلز بجدد هذه التقاليد ويضع تحت السياسة قاعدة علمية يمثلها علم التشكيلات الاقتصادية – الاجتماعية .

فلناخذ على سبيل المثال بحثه المعنون " تطور الرأسمالية في ... " لقد ادخل لينين في دراسته روسيا موضوعة التشكيلة الاجتماعية . ان الامر يتعلق بالموضوعة العلمية التي لم تقدر اهميتها حق قدرها حتى هذا الحين على النحو الكامل مابعد ماركس . ولكن ماركس لم يكن ليستطيع صياغة هذه الموضوعة العلمية لولا اختياره مدرسة الفلسفة القادرة على تحقيق الوحدة الديالكتيكية بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية ، وبين الاساس والبناء الفوقي والالمام بجوهر التطور والاحاطة بمقولة العملية الجارية على نطاقها الواسع والاستكشاف في الوقت نفسه بتحديد كل عنصر من عناصرها . وهنا بالذات يتجلى تقدير المنظر الى المادية التاريخية باعتبارها نظرية علمية لا يلغي بالا مجال انه ليفيد منها كاسب .

ولقد استهدى لينين بهذا الموقف الجديد بالذات لدى تأليف العديد من بحوثه التي اصبحت مراحل بعينها في سيرته . علما ان هذا الموقف يتجلى كذلك في انشطة لينين اليومية كصحافي ومنظم للنضال اليومي وقائد للثورة البروليتارية والدولة السوفييتية الفتيـــة .

وبفضل رهافة الحس ازاء الجديد بالذات اصبح لينين حاذقا في النضال السياسي وضليعا في الفكـــر الديالكتيكي .

لم يطمس النسيان الموقف المتشدد الذي اخذه لينين ازاء هواة " العبارات الثورية الرنانة " غير القادرين على تحليل الواقع وكذلك حيال من يعتبر الماركسية اشبه ما تكون بجملة من المبادئ التي تطبق بشكل جامد على الواقع . وقد اوضح مفسرا انه عن طريق الموقف النشط من الخبرة بالذات تصبح البرهنة على فاعلية الاحكام التي اهتدى الى استنباطها الفكر الماركسي . وتبدل تجارب الحياة هذه او تلك من الاحكام وتلزمنا التفكير بامعان في النظرية وتنطوي الممارسة الثورية على النظرية في الحركة نفسها التي تتخذها معيارا لتبديل وتدقيق هذه النظرية .

لقد اعتبر لينين ان التاريخ عموما وتاريخ الثورات بالاخص اكثر ثراء وتنوعا " وابرع ابتكارا مما تفكر وتظن افضل الاحزاب واكثر الطليعيين وعيا وادراكا من بين اغزر الطبقات خبرة وتجريبا . وهذا ما ينبغي علينا تفادي الوقوع في اغفاله حين ندرس عالم اليوم . وعلى هذا لا يجوز النظر الى تاريخ تطور العمليات الثورية المعاصرة كمجرد تكرار الثورات التي حدثت . ولو كانت القضية على هذا النحو لما كان لازما اذن في النضال السياسي الاعتماد على تحليل محدد لحالات محددة والتمسك " بالحلقة " التي تتيح المضي قدما . وقد سلط لينين ضمن مقالته : " المهام الدانية لدى السلطة السوفييتية " سوط الانتقاد اللاذع على اولئك الذين ظهر انهم غير قادرين على تحديث اشكال النضال نظرا لعجزهم عن امعان التفكير في الحالة المستحدثة . وانتقد المشرفين على " نوفايا ايسكرا " اي جماعة " الشرارة الجديدة " لكونهم يبشرون بالمادية الغريبة عن روح الديالكتيك .

وشرح في كتابه " مرض الطفولة اليساري " ان الممارسة اشبه بعلم الجبر منها بعلم الحساب واكثر شبها بالرياضيات العالية منها بالرياضيات الاولية .

وتجري في الحركة الثورية العالمية حاليا مناقشة القضية المتعلقة بسبل الانتقال نحو الاشتراكية في مختلف البلدان وينبغي لدى مناقشتها تلافي الانفعالات . يمكن حلها الا في حالة ما اذا اتخذ الادراك الثابت لديالكتيك العام والخاص الذي اعارة لينين الاهتمام من الدرجة الاولى لدى دراسته هيجل . واذا ما ادرك كذلك ان مقولة " الوجود " لدى لينين شانه لدى ماركس لا تعني هيكلا بلا زمن وتجريدا مطلقا فالوجود محدد وهو في عين الوقت علاقة وعملية . انه العلاقة اللازمة والمكونة التي تسترها الظواهر وفي الوقت نفسه تعريها والوجود هو عملية عميقة ينبغي الاقتدار على اظهارها بغية انجاح العمليات المبحوثة تجريبيا . وعلى هذا فان على حساب الدرجة الاولى من الاهمية ولكن بالذات لان الوجود صنيعة الحياة ومن نتاجها وبالذات لوجود حركة العام في الخاص والخاص في العام فان علم الثورة ينبغي ان ينوع مواقفه في كل بلد من البلدان حيث تنضج الظروف لاجراء التحويلات الاشتراكية . ويتوجب علينا نحن بالذات ايجاد الجواب من عصرنا على السؤال الذي يطرحه عصرنا .

الوجود يملك الديناميكية وهو حي . وهذه الديناميكية تتجلى في ديالكتيك العام والخاص . وهذا هو السبب في ان لينين يعتبر ان الادراك " متعدد التركيب " وان العلم (خلافا لما يعتقده العديدون) لا ينبغي ان يستثنى من مجال مفعوله دراسة الخاص . ان الشمولية ليست بالصيغة ذات العبارة الجوفاء بل هي محددة بعينها والوجود يشق ويعبد لنفسه الطريق بالذات في الوحدة المبتكرة التي تضم العام والخاص .

وفي المجتمع الشيوعي سوف تعبر كل شخصية فردية باسلوبها الخاص وبطريقة متفردة عن الجوهر البشري العام . والتفاوت التاريخي للطرق المفضية الى الاشتراكية هو التعبير غير المتكرر عن الفعاليـة العامة للاشتراكية كاشكال للعلائـق الاجتماعية المتحررة من الاستغلال الطبقي .

ولا يحق لاية قوة ثورية ولاي شعب الوقوع باسر الوهم بالقدرة على بناء المجتمع الاشتراكي بمعزل عن العملية العميقة المؤدية بالبشرية جمعاء نحو المجتمع الشيوعي العالمي . ولكن يمكن اقتراف الهفوة في حالة اعتبار الخبرة غير المستغنى عنها لدى كل شعب مجرد عامل مساعد خلو من كل جوهر وكظاهرة شاذة يمكن ادخارها لحين الحاجة الى توضيح عمليات الاعماق . ولو لم يكن الجوهر جوهرا بالنسبة للجميع لما كان حقيقا بانه يعتبر الجوهر .

لقد ترك لنا لينين من بعده بصدد هذه المسائل المعقدة تعليمات ولست بقائل اي شيء جديد حين اذكر ان العالم قد تغير جوهريا عقب سنة ١٩١٧ . ولقد توسع بعـــد الحرب العالمية الثانية مجال الاسلوب الاشتراكي في الانتاج ويعاني الاسلوب الراسمالي في الانتاج ازمة تنبع روافدها من نفس جوهر هذا النمط للمجتمع وكان بوسع الاوســاط الامبريالية سابقا ايجاد العلاج الناجع لشفاء مثل هذه العلة باشعال حرب عالمية تعود عليها بالاثر الحسن . ولسوء حظها وحسن طالع الشعوب ان حضور الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الاخرى وقوة الفصائل الدولية الكبرى لحركة قوى التقدم والسلام تقف عقبة كاداء تمنع هذه الاوساط من اللجوء الى استعمال مثل هذا العلاج

كتب لينين سنة ١٩١٣ ان الناس سيظلون دوما يخدعون في السياســة وسوف يخادعون هم انفسهم الى ان يتعلموا كيف يميزون تحت ضجيج الكلمات والعبارات الصاخبة مصالحهم الطبقية .

وهذا التعليم هو علم الثورة . وما من حزب ثوري مبرأ من دراسة المشاكل التي يطرحها نصب عينيــه مستقبل الصراع الطبقي .

وينطبق هذا نفسه ايضا على المشاكل الشاخصة اليوم امام الشيوعيين في مختلف البلدان الراسمالية ولو اني تناولت هنا مـــا يسمى " الشيوعية الاوروبية " لما توقفت عند استعمال هذا المصطلـح بل لذهبت الى الاسترسال في اكتناه محتواه الطبقي الذي يضفيه على هذا المصطلح نضال الشعب والقوى الثورية في هذه البلدان . إن دور الحزب الشيوعي ... استخلاص العبر المجدية ... النافعة من النظرية اللينينية ... الفهم والايضاح للاحرس ... الكامنة التي يكشفها لا ... والشعوب الدور المتنامي ... الاشتراكيةونامي الحركة ... والديمقراطية في البلدان ... ونهضة حركات التحرر ... المشاكل ان يحملنا على ... اسهام الماركسية في فهم ... ان خصوم الماركسية يحاولون ... عقائدي خاضع لقانون ... ولكن اليست الماركسية ... التي حررت مصطلح " العن... نظرية الحتمية الضاغطة ؟

لقد بين لينين ... " وجهات للتكتيك .... كيف يفسح التطور ... امام نضال الناس فرصة ...

وفي التطور الصاعد ... بالذات تتجلى الحرية ... ونمارس تاثيرها . ان ... مصيرا مقدرا بل هو العمل ... والخلق . وكل حزب ثوري ... يسهم بقسطه في المشاركة ... قبل ملايين الافراد في ... من اجل ان يصبح مجتمع ... مجتمعا لاجل الناس .

وقفة

بقلم ابراهيم ...

" عندما تكون احلام ... كبيرة فانه في العادة ... ويخرج من هذا الصدام ... غاضبا " .

كانت احلامه كبيرة ... بحجم الكرة الارضية ... تحتية الانسان على الارض ... الاسراع في تحقيقها .

جنة الارض ، جنة الانسان ... المسحوقين ... سيدها ... اوسع طبقاتها حجم ذات الخ... عددا والاكثر اضطهادا ... الحياة ... البروليتاريا .

حلم بالعامل يعمل والعلم ... ولا يشعر احد منها ... بالاهانة او الاستغلال في ... فيه الاغتراب بعد ما ... الشعور (الاغتراب) للسيد ... مستغليهم .

• • •

كانت احلامه كبيرة ... على كل الجوعى والعدم ... الحليب الساخن كل صباح ... العمال المسحوقين .. ... غاضبا شاهرا (سيفه) ... اعداء التقدم والبشرية ... ليبقى " الانسان رفيق ... وصديقه واخوه " .

• • •

يقول ف . أ . لينين ... العجلة والخطوات الواسعة ... شيء في مسائل الثقافة " ... لا بد من التأني في ... نخطوها في مسيرتنا الانسانية ... اذا اردنا ان ننتج ادبا ... قبل ان يستحق الحياة .